نعني بالعلم هنا ذلك الفرع من المعرفة الذي يُعنى بالعالم المادي. وفلسفة العلم تلك التي تُعنى بالمشكلات الفلسفية التي تنبعث من العلاقة بهذا العلم.

ومن بين أهم تلك المشكلات مايأتي:

(١) ــ كيف تتوسع معرفتنا عن العالم الخارجي؟

(٢) ــ ماهي المبادئ التي يقوم عليها البحث العلمي؟

ونحن هنا نناقش هاتين المشكلتين من وجهة نظر قرآنية.

١) ــ المشكلات المعرفية من منظور قرآني:

يوجد من وجهة نظر القرآن الكريم عالم واقعي مستقل عن أذهاننا:

«وفي الأرض آيات للموقنين* وفي أنفسكم أفلا تبصرون».

(الذاريات: ٢٠ ــ ٢١)

«الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور...».

(الأنعام: ١)

«أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء...».

(الأعراف: ١٨٥)

ونحن مأمورون بأن ندرس هذا العالم الخارجي لنتقرب الى الله تعالى (من خلال الآيات في الطبيعة) وأن نفيد مما سخر لنا منها:

«قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون».

(يونس: ١٠١)

«الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كلٌ يجري لأجل مسمى يدبّر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون».

(الرعد: ٢)

«وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون* ... وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون».

(النحل: ١٢، ١٤)

ولو كانت دراسة الطبيعة غير ممكنة لما أمرنا القرآن الكريم بالتمعّن في أصل المخلوقات ومعرفة التطور والظواهر الكونية، بل أكثر من ذلك توجد آيات في القرآن الكريم تشرح بوضوح هذه النقطة:

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق...».

(فصلت: ٥٣)

و بعبارة أُخرى ان القرآن الكريم بما أنه كتاب هداية لكل الناس لم يغفل عن ذكر أي شيء يخدم حياة الإنسان:

«... ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء وهدىً ورحمةً وبشرىً للمسلمين».

(النحل: ٨٩)

«... ما فرطنا في الكتاب من شيء...».

(الأنعام: ٣٨)

ونحن نتوقع من خلال دراسة دقيقة أنْ يتوصّل المرء الى مرحلة يستطيع فيها أنْ يستنتج من القرآن الكريم مواصفات الطرق والوسائل لمعرفة الطبيعة.

«وسائل معرفة الطبيعة»

إستناداً الى ماجاء في القرآن الكريم فانّ الوسائل العامة لمعرفة الطبيعة هي حواسنا وعقولنا:

«والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة...».

(النحل: ٧٨)

إننا نتعلم عادة من خلال المشاهدات والتجارب التي يعقبها؛ التفكير والتعقل:

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...».

(العنكبوت: ٢٠)

«أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها...».

(الحج: ٤٦)

إنّ الأجزاء الأولى من هذه الآيات تشير الى الملاحظات والتجارب، فيما تشير الأجزاء الأُخرى الى استخدام قوة العقل. ولذلك تكون التجارب العملية وسائل أساسية لمعرفة الطبيعة، وذلك على العكس من تصور بعض المدارس الفكرية المدعية أن كل معلوماتنا عن الطبيعة تأتي مباشرة وفقط عن طريق الحواس. و إذا حبسنا أنفسنا على الحواس ولم نفد من عقولنا شيئاً فلن يكون حالنا بأحسن من الحيوانات.

«... لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون».

(الأعراف: ١٧٩)

وعلاوة على ذلك نجد القرآن الكريم يشير باستمرار الى أن ادراك الآيات الإلهية المبثوثة في الطبيعة يكون من شأن أولئك الذين يعقلون ويتفكرون.

«إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب* الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض...».

(آل عمران: ١٩٠ ــ ١٩١)

«إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابَّة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماءِ والأرض لآيات لقوم يعقلون».

(البقرة: ١٦٤)

إنَّ القرآن الكريم يعلمنا أيضاً بوجود كثير من الحقائق في العالم الخارجي والتي لايمكن لحواسنا أن تدركها:

«فلا أقسم بما تبصرون* وما لا تبصرون».

(الحاقة: ٣٨ ــ ٣٩)

«خلق السماوات بغير عمد ترونها...» .

(لقمان: ١٠)

وأخيراً ان القرآن الكريم يشجب أفكار أولئك الذين يظنون بأنَّ مصادر المعرفة الوحيدة حول العالم الخارجي تأتي عن طريق حواسنا فقط:

«يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم...».

(النساء: ١٥٣)

ومع الأسف أن رياح الوضعية التي هبَّت في أوائل هذا القرن كانت قد أثَّرت على عقول كثير من العلماء المسلمين. كما يوجد كثير من العلماء المسلمين الذين يظنون أن معرفتنا حول العالم الخارجي لا تتعدى ما تصفه تجاربنا الحسية. ولمناقشة هذه الفكرة نقدم الملاحظات التالية:

(١) ــ نحن لا نواجه الطبيعة بأذهان فارغة، ولذلك لا توجد معطيات تجريبية خالصة. وان تفسيراتنا للمعطيات التجريبية ــ وحتى ما نراه حول هذه المعطيات ــ يعتمد ــ الى مدى معين ــ على مفاهيم سابقة وفرضيات يحملها الباحث مسبقاً. ان بلانك (Planck) يشرح هذه النقطة جيدا.

«كل مقياس تقديري للتجربة الطبيعية يأخذ معناه أولاً من خلال ما تقدمه النظرية، وإنَّ كل شخص له المام بالمختبرات الدقيقة يتفق على أنَّ المقاييس التقديرية حتى الظريفة منها والمباشرة مثل الأوزان والعملات يجب أن تصحح باستمرار قبل استخدامها في الأهداف العملية. وواضح بأنَّ تصحيح المقاييس لايمكن أنْ يكون بواسطة تلكم المقاييس نفسها. ولكنه يجب أنْ تنكشف أولاً من خلال هذه النظرية أو تلك لتسلط الضوء على الحالة المدروسة، وبقول آخر يجب أنْ تستنتج من فرضية ما».[1]

(٢) ــ كما أشار انشتاين (Einstein) حقاً[2] الى أنَّ المفاهيم الأساسية والفرضيات العملية لايمكن أن تستنتج من الحس التجريبي بأي منهج استقرائي، و إنما هي وليدة إختراعات حرة من

قبل العقل البشري: «الفيزياء تقوم على فكر منظم منطقي يكون في حالة تطور، ولا يمكن تجلية قاعدته كما لو كانت من التجربة بمنهج استقرائي، بل يمكن الوصول الى ذلك فقط عن طريق الإختراع الحر. وإنّ تقييم محتوى حقيقة النظام يعتمد على توكيد الإقتراحات المستنتجة بالحس التجريبي، في حين ان علاقة هذا الأخير بالسابق يمكن أنْ تفهم فقط فطرياً. والتطور يسير في اتجاه تبسيط الأسس المنطقية لهذه النظريات! ومن أجل الوصول أكثر الى الهدف يجب أنْ نسلم أنفسنا الى الحقيقة القائلة بأنّ القاعدة المنطقية تبتعد أكثر فأكثر عن حقائق التجربة، وإنّ طريق تفكيرنا من القاعدة الأساسية يصبح بالنسبة الى تلك الإقتراحات المستنتجة ذات العلاقة بالتجارب الحسية أصعب وأطول بشكل مستمر»[٣].

والسبب بالنسبة الى هذه الحقيقة هو أن النظرية يمكن أنْ تعتبر نتيجة مباشرة للتجربة، إذا استطعنا أنْ نبرهن على عدم وجود شرح آخر لتلك التجربة،ولكننا لانستطيع أنْ نَدّعي ذلك. وإنّ تجارب الماضي قد حذرتنا من الوقوع في مثل هذه الأخطاء. وإنّ التوافق بين النظرية وعدد من الحقائق التجريبية لايعني بالضرورة أن هذا صحيح، لأنّ النتائج المنطقية يمكن أنْ تستنتج من مقدمات متنوعة، وهكذا لايمكن أنْ نَدّعي بأنّ النظرية هي نتيجة مباشرة للمعطيات التجريبية، إذ كثير من النظريات يمكن أنْ توضع لشرح عدد من الحقائق التجريبية. ويجب أنْ يضيف المرء فرضيات أُخرى أو يقدّم معلومات أُخرى ليخصص واحدة منها.

فعندما كان كيبلر (Kepler) يدرس المعطيات حول الموقع النسبي للمريخ (Mars) خلافاً لخلفية الكواكب الثوابت، حاول أنْ يحصل على قانون له جاذبيته الخاصة (Agood looking law) حول المعطيات الموجودة، لكنه أخفق، وبعد أنْ تعرف على النظرية البيضوية في مجال آخر، افترض بأنّ المدار، بيضوي، ودقق هذه الفرضية خلافاً للمعطيات التجريبية فوجدها صحيحة وناجحة. وهكذا كانت فرضية المدار البيضوي للمريخ غير ناتجة عن الملاحظات التجريبية حول المريخ.

فنمو العلم وازدهاره يرجع الى كلا الجانبين العمل التجريبي والفرضيات النظرية.

(٣) ــ توجد عدة مفاهيم ليست مستنتجة عن طريق الحس التجريبي، وكمثال على ذلك مفهوم العلية (Causality) ؛ وهو ليس مستنتجاً من الإنطباعات الحسية. وكل ما يمكن أنْ نحصل عليه من خلال حواسنا هو أن «ب» رتبتها بعد «أ» وأن العلاقة العلية بين «أ» و«ب» نابعة من حكم عقولنا. كما توجد عدة مفاهيم معتبرة في العلوم الفيزياوية لكنها ليست حصيلة الملاحظات المباشرة وأنها قدمت من قبل العلماء لتشرح المعطيات التجريبية. وعلى سبيل المثال، نحن نستخدم مفهوم الذرة (Particle) لنشرح آلافاً من الملاحظات التجريبية، ولما يستطع أحد ملاحظتها (حتى في أدق الآلات وأكثرها حساسية). نحن نعلم بوجود الذرة بواسطة التعمق الفكري. وكذلك هي معلوماتنا حول المناطق البعيدة مكاناً وزماناً

ليست مباشرة.

والنتيجة التي نريد الوصول اليها من هذه المناقشة هي:

١) ــ إنَّ التجربة وحدها بدون العقل النظري لايمكن أنْ تعطي اية معلومات متميزة حول الطبيعة.

٢) ــ حتى ولو كانت الملاحظة والتجربة واجبة لأخذ الصورة عن العالم الفيزياوي، ولكن ليست كل معرفتنا عن الطبيعة ناتجة عن التجارب الحسية.

و إنَّ الطريقة في أخذ الصورة الصحيحة عن العالم الفيزياوي هي طويلة، ويمكن أنْ تتكامل من خلال التدرج في مزاوجة العمل التجريبي والتدقيق النظري.

«حواجز أمام التعقل الصحيح»

كما أشرنا الى ان القرآن الكريم يوصينا بالتفكر في الطبيعة، وأنْ نتأمل بما نلاحظ. والتأمل بدوره يدعو الى الإفادة من المعلومات المتوفرة والتحرك نحو معرفة جديدة وطازجة. وهذه الحركة التفكيرية ــ على أية حال ــ تقودنا الى نتائج صحيحة إذا ما روعيت مبادىء معينة وقواعد خاصة. وهكذا نصل الى المنطق الذي هو دراسة مبادىء التعقل الصحيح، إلّا أن استخدام الأُسس المنطقية وحدها ــ على أي حال ــ لايستطيع أن يضمن النتائج الصحيحة، إلّا إذا تأكدنا من أن المقدمات التي استخدمناها ليست فاسدة. ومن أجل هذا السبب حذرنا القرآن الكريم من الأشياء التي تحرم عقولنا من العمل بشكل صحيح. ونحن هنا نشير الى العوامل الرئيسة التي تمنع من فهم الطبيعة على حقيقتها:

(١) ــ نقص الايمان:

ينص القرآن الكريم، على أن العلم بلا إيمان لايقود الى معرفة صحيحة للطبيعة:

«قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون».

(يونس: ١٠١)

إنَّ الدور الأساس للإيمان في الفهم هو حفظ قوة التعقل في الإنسان في مستواها الفطري، بعيدة عن نزغ الشيطان ونزغات الهوى.

(٢) ــ الإنحياز في الحكم:

إنَّ اتباع المرء لأهوائه حباً أو بغضاً يؤدي الى تعصب غير عادل، وكذلك تكون ميوله و إعجابه بنفسه عاملاً مهماً يمنعه من استخدام قوة العقل بشكل غير منحاز أو حكم عادل.

«.... ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولانصير».

(البقرة: ١٢٠)

«لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون».

(الزخرف: ٧٨)

«فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ❋ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً....».

(النمل: ١٣ ــ ١٤)

(٣) ــ التقليد الأعمى للآباء والأبناء:

«وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا».

(الأحزاب: ٦٧)

«... بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون».

(البقرة: ١٧٠)

(٤) ــ النقض والتأكيد بلادليل:

إنَّ سبباً من أسباب الخطأ في الحكم الرئيسة يرجع الى إبدال العلم بالظن:

«وما لهم به من علم أنْ يتبعون إلاّ الظن وان الظن لايغني من الحق شيئاً».

(النجم: ٢٨)

ومن أهم مبادىء البحث العلمي أنه يجب أنْ لاينفي المرء أو يؤكد أي شيء بدون دليل:

«ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً».

(الاسراء: ٣٦)

مبادىء مقررة في البحث العلمي:

لقد أشرنا الى أن البحث العلمي هوعبارة عن مزيج بين العمل التجريبي والنشاط الفكري. والآن ومن أجل أنْ يكون الإدعاء ذا معنى، وان يحظى المرء بنتيجة صحيحة، لابُدَّ من تحديد جملة من المبادىء المعنوية مسبقاً قبل أي عمل علمي. وقد وجدت وجهات نظر مختلفة حول عدد هذه المبادىء وطريقة تفسيرها. وبالرجوع الى القرآن الكريم كمنبع هداية لنا، نعتقد بالمبادىء التالية، إضافة الى الأُسس المنطقية (من قبيل مبدأ عدم التناقض) وهذه يجب أنْ يفترضها المرء سابقة لأي نشاط علمي:

(١) ــ مبدأ التوحيد:

من وجهة نظر القرآن الكريم، ان دراسة الطبيعة يجب أنْ لا تكون من أجل إشباع فضول الانسان وحب الإطلاع، بل الأحرى يجب فيها قصد معرفة الخالق الحكيم وحاكم الكون العظيم، و إنَّ كل الموجودات الطبيعية علامات وآيات لقدرته تعالى، ودراستها يجب أن تعود اليه.

وأبعد من ذلك، توجد في القرآن الكريم إشارات الى وجود النظم والإنسجام والهدفية في العالم الخارجي.

«... وخلق كل شيء فقدره تقديراً».

(الفرقان: ٢)

«... ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور».

(الملك: ٣)

«وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين* ما خلقناهما إلاّ بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون».

(الدخان: ٣٨ ــ ٣٩)

وهذا النظم والإنسجام في الوجود يعود الى الباريء (جلَّ وعلا) الذي برأ الكون كله.

«لوكان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا...».

(الأنبياء: ٢٢)

«... صنع الله الذي أتقن كل شيء...».

(النمل: ٨٨)

«أفلا يتدبرون القرآن ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً». (النساء: ٨٢)

«هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلّا بالحق...». (يونس: ٥)

إنّ الإعتقاد الجازم بمبدأ التوحيد يدعو العالم الباحث الى تكوين نظرة شاملة حول الطبيعة؛ إذ لايراها متناثرة متنافرة؛ بل تمكنه من شرح هذا الإنسجام والنظم في الوجود الخارجي.

ومن جهة أخرى، بدون عقيدة راسخة بالنظام والإنسجام الحاصل في الطبيعة، سيكون البحث العلمي مفرغاً من النظرة الشمولية، وسيكون على أحسن تقدير ذا اعتبار موقت.

نعم يوجد بعض العلماء الذين يؤمنون بوجود النظم والإنسجام في الطبيعة، ولا يؤمنون بمبدأ التوحيد، بل لايعيرون أهمية لذلك، ولكننا نرى بدون عقيدة التوحيد لايمكن وجود شرح مرض لنظم الخليقة.

(٢) ــ واقعية العالم الخارجي:

وكما قلنا مسبقاً فانه يوجد من وجهة نظر القرآن عالم خارجي مستقل عن التصور الذهني:

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة...».

(النحل: ٧٨)

«الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون* ... والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون».

(الزخرف: ١٠ ــ ١٢)

إنّ الإعتقاد بوجود عالم موضوعي، يشكل القاعدة التي ترتكز عليها جميع العلوم الفيزياوية والطبيعية، و بدونه ستكون أية محاولة علمية مجرد لعبة أو رياضة عاطلة. وهذه العقيدة كانت دائماً من أقوى الدوافع المحركة للعلماء الواقعيين. وان بلانك (Planck) يعبّر عن هذه النقطة جيداً بقوله:

«إنّ مواقف العلماء وأكثر العقول أصالة أمثال كيبلر Kepler ونيوتن (Newton) وليبنس (Leibnits) وفارادي (Faraday) كانت قد آمنت بواقعية العالم الخارجي وبتدبير عقل متعال له وخارج عنه».[1]

(٣) ــ محدودية المعرفة البشرية:

نحن نتعلم من القرآن الكريم بادىء ذي بدء ان المعرفة البشرية محدودة:

«... وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً».

(الإسراء: ٨٥)

كما نتعلم منه أيضاً انه توجد كثير من الأشياء لا تستطيع أجهزة حواسنا إدراكها:

«فلا أقسم بما تبصرون* وما لا تبصرون».

(الحاقة: ٣٨ ــ ٣٩)

«الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها...».

(الرعد: ٢)

«سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون».

(يس: ٣٦)

وبالتالي فان علينا أنْ نؤمن بالغيب، وهو حقيقة قدرة ماوراء الطبيعة:

«ذلك الكتاب لاريب فيه هدىً للمتقين* الذين

يـؤمـنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون».

(البقرة: ٢ ــ ٣)

و إنَّ الايمان بمحدودية العلم البشري والايمان بالغيب يحثنا على التطلع والتأمل لأنه:

أ) ــ لايحدد أذهاننا بالوقوف عند المرحلة الحسية.

ب) ــ يجب ألاّ نظن بأننا اكتشفنا كل شيء.

(٤) ــ مبدأ العلية:

هذا المبدأ يقرر بأنه لابُدَّ من علة لكل معلول، ومنه يشتق مبدآن مهمان:

أ) ــ **مبدأ الضرورة:** كل علة لها معلول، و بلا علة يستحيل وجود معلول.

ب) ــ **مبدأ سنخية العلة والمعلول:** العلل المتشابهة توجد معلولات متشابهة.

وقد وجدت فرضية من قديم الزمان قال بها كثير من العلماء وعلى مرّ العصور تنص على وجود قوانين معينة تحكم عالمنا الخارجي. وان مبدأ العلية فرضية تعطي معنىً تطبيقياً لكل قانون يشرح الظواهر الطبيعية.

ونحن نجد في القرآن الكريم إشارات الى هذا المبدأ في عدة نصوص:

(١) ــ هنالك عديد من الآيات تتحدث عن عدم تغيُّر سُنَّة الله في الكون:

«فهل ينظرون إلاّ سُنَّة الأولين، فلن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولن تجد لسُنَّة الله تحويلاً».

(فاطر: ٤٣)

«... فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله...».

(الروم: ٣٠)

(٢) ــ توجد عدة آيات تتحدث عن ميكانيكية ثابتة لحدوث حوادث معينة:

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين».

(المؤمنون: ١٢)

«... وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم...».

(البقرة: ٢٢)

(٣) ــ إنَّ بعض الآيات القرآنية تشرح تدخل بعض الوقائع لظهور وقائع أُخرى:

«وأرسل عليهم طيراً أبابيل* ترميهم بحجارة من سجيل».

(الفيل: ٣ ــ ٤)

«قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم...».

(التوبة: ١٤)

كما توجد أيضاً بعض الآيات تنسب خلق العالم وتدبيره الى الله تعالى مباشرة:

«... قل الله خالق كل شيء...».

(الرعد: ١٦)

«... الا له الخلق والأمر...».

(الاعراف: ٥٤)

ومن الجمع بين هذين النوعين من الآيات يمكن للمرء أنْ يستنتج بأنَّ كل شيء يتحقق بإرادة الله تعالى، ولكن من خلال قناة معينة، و إنَّ الآيات من قبيل مايأتي تؤكد هذا الأمر:

«والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لايخرج إلاّ نكداً...».

(الأعراف: ٥٨)

إنَّ هذه الآية تشير،إضافة الى ضرورة وجود إرادة الله في نمو النبات،الى ضرورة خصوبة الأرض أيضاً. إذ ليس كل نبات يمكن أنْ ينمو في كل مكان.

هنالك بعض علماء المسلمين المشاهير «أمثال الإمام الغزالي[5] والإمام الرازي»[6] من أتباع المدرسة الاشعرية يرفضون ضرورة العلاقة العلية (القطعية) في العالم الخارجي. وقد قالوا بعدم وجود دور للأسباب الطبيعية في تحقق الظواهرالطبيعية وان علة أي حدث مرتبطة بإرادة الله تعالى، غير انه من سُنَّة الله في خلقه أنْ يخلق ما يصطلح عليه (بالمعلول) بعد ما يصطلح عليه (بالعلة). و إذا لم يرد الله تعالى ما يصطلح عليه (بالمعلول) لايتبع مايصطلح عليه (بالعلة).

والسبب في إنكار هؤلاء العلماء لهذه القطعية يكمن في تصورهم بأنَّ الفرضية القائلة بضرورة العلاقة العلية ستؤدي الى:

(١) ــ محدودية قدرة الله.

(٢) ــ عدم وجود مجال للمعجزات.

إنَّ هذه النتيجة ــ على أية حال ــ ليست صحيحة، لأنَّ ما يصطلح عليه بالعلة ببساطة هو توسطها في البين أوعلة مهيئة، وليست علة تامة. و إنَّ دور الأسباب المتوسطة هو تهيئة الأرضية اللازمة لوجود بعض الأشياء، والله تعالى يخلق كل شيء من خلال هذه المتوسطات المعينة أو العلل المهيَّأة، وهذه نفسها قد خلقها الله تعالى. و إنَّ الحاجة لهذه المتوسطات لا تعني عدم قدرة الخالق الكافية، بل تعود الى عدم قابلية المحل الكافية لفيض الله تعالى[7].

بعد ظهور نظرية الكوانتوم في الفيزياء (Quantum Theory) وطرح مبدأ عدم القطعية من قبل «وهايزنبرغ» (Heisenberg) في أوائل الربع الثاني من القرن الحالي، فقد أنكر بعض المؤسسين لهذه النظرية مبدأ الضرورة ومبدأ سنخية العلة والمعلول في الوجود الذري.

وفي نظرهم ان كل قوانين المايكروفيزياوية (Microphysics) ذات حالات إحصائية، مشيرين الى المعدلات المحصلة من ملاحظات عديدة متشابهة، ومعترفين بوجود استثناءات في بعض الملاحظات.

إنَّ أكثر الفيزياويين مع استثناء بعض منهم أمثال بلانك (Planck) وانشتاين (Einstein) قد قبلوا النظرية الجديدة وتفسيراتها المتزمتة، وهي باقية على هذه الحالة على الرغم من ازدياد عدد المعارضين لها على مرور الأيام.

إنَّ انشتاين (Einstein) و بلانك (Planck) وبعض العلماء الآخرين من الفيزياويين لم يقبلوا حاكمية قوانين إحتمالية للكون. وفي نظرهم يجب تفسير الحوادث في الطبيعة نهاية على أساس القوانين الشاملة، و إنَّ قاعدة قطعية يجب أنْ تكون تحت السلوك الإحصائي الظاهر. و إنما يستعمل الإنسان القوانين الإحتمالية إما لأنَّ القوانين الأساسية غير معروفة، أو أن صعوبةً ما حاصلة من عدم الإحاطة بالأرقام الكثيرة.

وبهذا الصدد كان لأنشتاين

(Einstein) التعليق الآتي[٨]:

«أنا لاأستطيع إلّا الإعتراف بأهمية تحويلية (Transitory Importanc) لهذا التفسير. وأنا ماأزال أعتقد بإمكانية تشخيص الواقع، وذلك بالقول بنظرية تحقق الأشياء نفسها لاباحتمال حدوثها فقط».

وفي رسالة الى بورن (Born) في ديسمبر ١٩٢٦ كتب انشتاين (Einstein) قائلاً[٩]: «إنّ الميكانيكية الكوانتومية: (Quantum Mechanics) بالتأكيد تفرض نفسها، ولكن صوتاً من الأعماق يقول لي هذه ليست شيئاً واقعياً. إنّ النظرية تشرح الكثير، ولكنها لا تقربنا حقاً الى سرّ«الشيء القديم». وأنا ـ على أية حال ـ مطمئن الى أنه لا يقامر (He is not playing dice)».

ومع الأسف فقد أطلعنا على آراء بعض العلماء المسلمين الذين أحيوا نظرية الأشاعرة المنتقضة، وقد اتخذوا من الميكانيكية الكوانتومية (Quantum - Mechanics) برهاناً على ادعاءاتهم. ونحن ننقض هذا الطراز من التفكر بما يأتي من النقاط:

(١) ـ إذا كنا ننكر صحة مبدأ العلية في عالم الذرة أو ما حواليها، فإنّ هذا يعني تشويه هذا المبدأ في العالم كله، لأنّ العلية تربط أقسام العالم المختلفة معاً.

(٢) ـ إذا كان مبدأ العلية قد أصبح غير حقيقي، فإنه يعني عدم وجود رابطة بين مقدمات قضية ونتيجتها، لأنّ المقدمات عبارة عن السبب في قبول الإنسان للنتيجة. وبدون مبدأ العلية لاشيء يمكن أنْ يكون نتيجة لقضية ما، وبأي نوع من المقدمات حينئذ يمكن للإنسان أنْ يشتق أي نتيجة، وبذلك لايكون فرق بين إثبات شيء، وعدم إثباته. ولهذا السبب حتى أولئك الذين يرفضون مبدأ العلية يستخدمون هذا المبدأ ضمناً[١٠] لأنهم لولم يؤمنوا بأنّ قضيتهم سوف تسبب تغييراً في عقيدتنا لما حاولوا الجدال معنا.

(٣) ـ كما أشار الشهيد الأستاذ مرتضى المطهري[١١] والشهيد آية الله الصدر[١٢] الى ان استحالة الإستنباط في عالم الذرة ليس عائداً الى خلل في القطعية، ولكنه نتيجة لجهلنا بالقوانين القطعية الحاكمة في الظواهر الذرية، وهذا يمكن ان يكون إما بسبب حاضرنا التجريبي ومعرفتنا النظرية غير الكاملة، أو عائداً الى حقيقة عدم استطاعتنا قياس أثر المراقب على معياره بدقة.

وعلى أية حال، يجب أنْ يكون المرء منتبهاً الى ان إخفاقنا في اكتشاف القطعية في عالم الذرة لايعني بأنّ العلاقة العلية غير قائمة وليس لنا الحق بأنْ ندعي بأننا اكتشفنا كل المشخصات القياسية المنطبقة على هذا العالم.

ويبدو انه من المناسب عند هذه النقطة أن نقتبس ما كتبه ديراك (Dirac) في ١٩٧٩[١٣]:

«يبدو واضحاً في الوقت الحاضران ميكانيكية الكوانتومية (Quantum - Mechanics) ليست في شكلها النهائي. وستحتاج الى تغييرات أبعد من ذلك كما حصلت تغييرات خطيرة في الإنتقال من مدارات بورن (Born Orbits) الى الميكانيكية الكوانتومية (Quantum Mechanics)

وستكتشف يوماً ما ميكانيكية كوانتومية نسبية جديدة لايوجد فيها هذه اللانهايات التي لدينا مطلقاً. وربما ستمتلك ميكانيكية الكوانتوم هذه القطعية على الطريقة التي أرادها انشتاين (Einstein) وهذه القطعية ستقدم على حساب هجران بعض المفاهيم التي تقول بها الفيزياء المعاصرة والتي ليس من المتعقل الآن محاولة الوصول اليها.

«وفق الشروط، أظن من المحتمل جداً، أو على أية حال من المحتمل فقط، وعلى مدى طويل سيثبت كون انشتاين مصيباً، حتى ولو كان على الفيزياء المعاصرة أن تقبل تفسيرات احتمالات بورن (Born)، وعلى الخصوص إذا كانت ثمة اختبارات أمامهم».

وباختصار بنفي العلية لايمكن أنْ يُتحصَّل على شيء وليس يمكن لشيء أنْ يشتق من شيء، ولا يمكن أنْ يكون للعلم مجال. وعلى العلم أنْ يقبل مبدأ العلية بكل لوازمها، حتى يكون وجوده ذا معنى. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين●

المصادر:

1. Max Planck, **The New Science,** Greenwich Editions (1959). P.51

2. **Einstein, A Centenary Volume**, Edited by A.P French, Heinemann (1979), P.312.

3. **Ideas and Opinions by Albert Einstein**, Trans. Sonja Bargman, New York, Crown Publishers (1959), PP. 322-23.

4. Max Plank **The New Science,** Groenwich Editions (1959), P.250.

٥ ــ الغزالي «تهافت الفلاسفة» (ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠، طبع مصر).

٦ ــ فخرالدين الرازي، **التفسيرالكبير** (ج ٢/ ص ١١٠ــ١١١؛ ج ١٤/ ص ١٩٣ ــ ١٩٥: ج ٣٠/٥٣).

٧ ــ صدرالدين الشيرازي: **الأسفار الأربعة** (ج ٦/ ص ٣٧١).

8. **Ideas and Opinions by Albert Einstein**, Trans. Sonja Bargman, New York, Crown Publications (1954), P. 276.

9. **Einstein, A Centenary Volume,** Edited by A.P. French, Heinemann (1979), P.310.

١٠ ــ ابن رشد؛ **تهافت التهافت** (ص ١٢٢، طبع مصر، ١٣٢١ هـ.ق).

١١ ــ حواشي الشهيد المطهري على **أصول الفلسفة والمنهج الواقعي** (ج ٣، ص ٢١٧).

١٢ ــ الشهيد محمد باقر الصدر: **فلسفتنا** (ص ٣٠٥ ــ ٣٠٩، بيروت، ١٩٨٠).

13. **Some Strangeness in the Proportion**, Edited by Woolf, Addison - Wesley Co., P. 65.